

# الدين

## وموقف الثقافة العربية في مواجهة العصر

بقلم الدكتور عفت الشراوي

لجأ الزمان حيث أجه بها مجراه .

وقد تمثلت هذه الحقيقة في اتجاهين بارزين من اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث : أولهما اتجاه يعنى باحياء المفهوم الاجتماعي للكلمة التراثية ، وثانيهما اتجاه يعنى بربط النظرية العلمية الحديثة بالنص القرآني . وكان هدف الاتجاه الأول العثور على معيار اسلامي تستطيع به ثقافتنا الاصيلة الحكم على القيم الجديدة الوافدة والاستفادة منها في غير جمود ، على حين كان هدف الاتجاه الثاني محاولة العثور على مركب ثقافي نستجمع به شخصيتنا الحضارية بعد شتات .

عنى اصحاب الاتجاه الاجتماعي بقصيصة الدين والمجتمع ، وعرضوا لمشكلات عديدة مثل صلاحية الاسلام للحياة الحديثة . ولقد شغلوا احيانا بقضايا ذات طابع سياسي مثل الصراع ضد الاستعمار والدعوة الى التحرر من قبضته ، ومثل مسألة نظام الحكم والوحدة العربية والوحدة الاسلامية وكتبوا في قضايا تتصل بالاصلاح الاجتماعي المباشر ، مثل قضية المرأة والنظام الاقتصادي وغير ذلك . ولا املك في مثل هذا المقام تفصيل البيان لكل هذه القضايا التي تكشف عن جانب ثقافي هام من جوانب العقلية العربية المعاصرة . ولكنني اكتفي هنا بالإشارة الى المفتاح الفكري لكل هذه القضايا ، اعني المعيار الاسلامي الذي نادوا به للحكم على الجديد خلال هذا التفسير الحضاري الشامل الذي تمر به اممتهم .

كانت مسألة فتح باب الاجتهاد هي المجال الذي عثر عليه الفكر الديني الحديث لتتفتح له حرية التحرك في مواجهة القيم الجديدة ، والشعافية الوافدة والملابسات المتغيرة ، فدعا بعضهم الى الوقوف عند القرآن والسنة في مسائل التشريع ، معلنا ان ما اضافته اجيال الفقهاء المتأخرين قد لا يناسب العصر الحاضر ، لانه وضع في ظروف اخرى ، ولا يمكن تشيئه في قالب جامد تجاه جميع المراحل المستقبلية . وبهذا حاول المفسر المحدث ان يكسب موقفه مرونة تسمح له بمناقشة القيم الجديدة التي تتصل بالامور الدنيوية من فضائية وسياسية ، فاما ما يتصل بالبشر في امورهم الروحية من العقائد والمبادئ ، فهي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وقد احاطت بها النصوص ، فليس لبشر بعد الرسول ان يزيد فيها ، ولا ان ينقص منها شيئا . وما يستنبطه بعض العلماء من الكتاب والسنة في زمان ما ، لا يكلفه - تقليدا لمن استنبطه - من لم يظهر له ان ذلك من الدين وان كلام الله تعالى او سنة رسوله دالة عليه .

يمثل هذا الموقف حاول الفكر الديني ان يناقش الجديد في شجاعة ، وان يقبل منه ما يتفق مع الاسلام في تفسيره الجديد بعد ان يسبغ عليه شرعية القبول في المجتمع الاسلامي التي يمنحها اياه حق الاجتهاد .

كانت مناقشة مسألة الاجتهاد اذن استجابة من الفكر الحديث لظروف العصر ولم تكن نتيجة جهد مفكر بعينه . ولقد املت هذه الروح مثل هذا الاتجاه على اكثر من مفسر في اكثر من بلد اسلامي . فالجاهدون الهنود أيضا يرفضون حجة التقليد بين مصادر التشريع ويعتقدون ان هناك من القيم ذات الدلالة النسبية والموقوتة ما اصبح ذا دلالة نهائية مطلقة على ايدي المتأخرين ، وفي رأيهم انه لو فهمت هذه الامور النسبية والموقوتة على انها نسبية وموقوتة لما وقف الاسلام بحال حجر عثرة في سبيل النظم الاجتماعية التي تتطلبها الملابس والاتصالات الزمنية المتغيرة ، ولا في سبيل تحقيق نتائج البحث

اصبح مقررا لدى علماء الاجتماع والاديان ان الدين جزء جوهري من اية ثقافة بوصفها الانماط المشتركة بين اعضاء المجتمع ، والمؤثرة في سلوك الجماعة . ولقد كان القرآن مصدر الدين الاسلامي وواعده الجوهري ، ومن ثم كان له صلته الواضحة بالمثل الثقافية التي يتطلع اليها مجتمعنا العربي المعاصر .

وسأعرض في هذا الحديث للجانب الديني من ثقافتنا المعاصرة في مواجهة العصر متمثلا في النشاط التفسيري للقرآن الكريم في مصر ، وهو موضوع كان لي شغف بمتابعة نصوصه في مصادرها المختلفة .

أول حقيقة تسلفت النظر في تاريخنا الثقافي ان النص القرآني كان هو الاساس الذي حاول المصلحون او مدعو الاصلاح دعم موقفهم به ، فحيثما هبت أعاصير الزندقة أو الموجات الاحادية كان المفسرون ينهضون لمواجهتها ويفسرون النص القرآني في الرد عليها . بل ظل القرآن قاعدة ثقافية كبرى تشكل النشاط الحضاري في المجتمع العربي على مر العصور لان المفاهيم الاساسية في المجتمع الاسلامي ظلت تستمد قيمها من القرآن وتقوم على فاعدته الروحية . ولقد كان القرآن بذلك المرجع العام لنشاط الحضارة الاسلامية .

ظل القرآن رائد المصلحين في نقض الدعوات الدخيلة ورد الزائف من كل جديد . غير ان المفسر القديم خلال مواجهته لوجوه العصر المستحدثة كان في كثير من الاحيان يلجأ الى البحث النظري والتجريد الفلسفي لما يعرض له من قضايا بحيث يظل الصراع فكريا دائما . ولكن المفسر الحديث اصبح يميل الى المعالجة العملية والى مواجهة اكبر قطاع من جماهير الامة لاخذ بيده على الطريق . وهو بصفة عامة اكثر من زميله القديم تذكرا لواقع امته ، بل انه يغفل في تفسيره للقرآن تفصيلات بيانية او لفوية اسرعا منه في الهجوم على غرضه التوجيهي ، وتجنبا للقارئ ان تثقله تفصيلات بلاغية عن متابعة الهدف الذي يحرص على ابرازه .

لاحظ بعض الباحثين بحق ان انجهد في سبيل الحرية كان الطابع الغالب على الفكر العربي المعاصر ، وهي صفة تنطبق ايضا على كثير من انتاج المفسرين الحديثين ، فلقد واكبت حركة التفسير الحديثة نهضتنا الادبية في هذا المعنى وعاشت مراحلها ، وكان للمفسر دور في ذلك يمثل دور الاديب ، بعد ان استطاع ان يجد في القرآن آيات تبعث في الناس حمية الكفاح من اجل الحق والعدل .

لقد فرضت طبيعة المرحلة التي نعيشها الامة العربية نفسها على المفسر وانجحت هذه النزعة الالتزامية في التفسير . كانت المشكلة الحقيقية التي واجهت الشعوب الاسلامية في مطلع هذا القرن بعد ان وجدت نفسها ضعيفة منككة . . هي تنظيم جهودها لتقاوم السيطرة الغربية في مجالها العسكرية والاقتصادية والثقافية ، وتنج عن ذلك ان شغل الفكر الديني في مصر بفايات عملية عاجلة ذات صبغة قانونية او اجتماعية ، وقل بذلك نصيب القضايا الفلسفية الخاصة في تفسير الحديثين .

ولقد شغف الفكر الديني الحديث بعرض القيم القرآنية عرضا اجتماعيا لانبات صلاح العقيدة والقرآن لحياة الجماعة البشرية على اختلاف الاجيال والافايم ، لينتهي الى القول ان الجماعات التي تدين بالقيم القرآنية تستمد منها حاجتها من الدين الذي لا غنى عنه، ثم لا تفوتها منها حاجتها الى العلم والحضارة ، ولا استعدادها

به شخصيتنا الحضارية بعد شتات .

كان مجتمعنا الثقافي يعاني ازدواجية حادة في الثقافة انعكست على ثقافته ، ازدواجية حادة في التفكير والواقف ، وكان هذا مما يشبه الهوة بين الفكر الديني الذي يرتبط بماضي الامة ، والتفكير العلمي الحديث الذي يمثل حضارة الغرب . واخطر من كل هذا اننا اخذنا نقيس واقفنا الاجتماعي ، ونعانر في ضوئه ماضينا بما يسحر ابصارنا في حاضر هذه الامة القريبة . ونشأ عن ذلك في نفوس كثير من متفينا موقف نفسي متناقض بين اعتزاز بتاريخنا الماضي المصل باعمافنا ، ونورة على حاضرنا المتخلف ، وبين واسع شديد بحضارة الغرب التي لم نستطع ان نأخذ عنها الا جانبها المادي الظاهري ، حتى خيل لبعض الباحثين ان العالم الاسلامي قد فقد كفايته الذاتية لأول مرة في تاريخه ، فبعد ان كانت الثقافة الاسلامية مركبا متوازنا من الجانبين العلمي والصوفي في الحياة بدأ العالم الاسلامي يعتمد على غيره في شؤون الحياة من حرب وتجارة وصناعة ، ولقد كان عسيرا عليه ان يفقد باطنه كما فقد ظاهره فضلا عن انه نقل عن الغرب ظاهره دون باطنه حتى اصبح المركب الثقافي في العالم الاسلامي اسلامي الباطن غربي الظاهر ، وبهذا تحطمت الوحدة الثقافية فيه في رأيهم . في سبيل استجماع هذا المركب الثقافي في وحدة منزنة ، حاول بعض المفسرين الالاح على استخراج المعاني العلمية لبعض الآيات القرآنية في الكون والحياة هادفين بذلك الى ان يربطوا بين القرآن بوصفه القاعدة الثقافية للامة الاسلامية والعلم الحديث بوصفه اعظم ما تدل به المدينة القريبة .

وقد انقسم العلماء في بيان موقف القرآن من العلم : قسم يأخذ بتحكيم المصطلح العلمي في التفسير ، وحمل العبارة القرآنية على وجه يطابق ما وصلت اليه علوم العصر ، والقسم الثاني ينكر هذا الاتجاه ويفرق بين الحقيقة الدينية والنتائج العلمية .

ولا نريد ان نخوض في حوار طويل مع أحد الفريقين ، فهذا لا يسمح به المقام ، وانما نتساءل عن طبيعة الدور الثقافي الذي اضطلع به هؤلاء المفسرون من اصحاب النزعة العلمية في التفسير ودلالته الحضارية .

ينبغي اولاً ان نسجل ان الاتجاه نحو التفسير العلمي يتزايد مع الزمن وانه يلقى رواجاً مشهوداً بين القراء ويتدرج الى مزاحمة الالوان الاخرى من التفسير حتى ليكاد يخلو له الميدان اليوم سواء اُرصي مفكرو التفسير العلمي ام لم يرضوا عن ذلك .

بدأ التفسير العلمي حيباً خافتاً ، وكان الاصل فيه ان القرآن لا يمكن ان يحتوي على تعليم يتعارض مع حقائق العلم ، وتدرج ذلك الى الاعتقاد المبهم بأنه يشتمل على النظريات العلمية للقرنين التاسع عشر والعشرين ، ثم اخذ بمسد ذلك بعض المفسرين في تفصيل لبيان هذه الدعوى حتى كان الطنطاوي جوهرى شيخ المفسرين بالعلم الحديث في مصر .

تفسير هذا النطور يتصل باحساس المفسر الحديث الذي يريد ان يصل ماضيه الروحي بخير منجزات العصر الحديث . ان العلم الحديث الذي يمثل قمة الحضارة القريبة في نظر المفسر يصادف لديه هوى دفيناً لا يفوقه الا تعلقه بثقافته الروحية المتمثلة في القرآن ، ولذلك فانه ينشط الى خلق هذا المركب الثقافي بين القرآن والعلم ويقتبط قراؤه كثيراً حين يوفق الى تحقيق توافق ما بين هذين المصدرين . وهذا التوافق يسعدنا لانه يخلصنا من ازمة التخلف التي ظلت تؤرقنا طويلاً ، ولكن المفسر الذي يتناول النص القرآني بهذا الاحساس قد يضطر الى مجاوزة الحدود التي تحتملها الفاظ النص الكريم لانه يحس بضرورة متابعة العلم في مجاله المختلفة مع ان كثيراً من حقائق العلم مؤقنة قابلة للتفسير وتتكشف يوماً بعد يوم وحينئذ يكون التعلل في تلمس المطابقة بين القرآن والعلم تعجلاً غير مشروع .

على ان التوفيق والاعتدال في تلمس هذا التطبيق قد يخدم في الحقيقة الجانب النفسي من المسلم المعاصر ، ويجدد من حيوية الدين في نفوس الناس ، ويخلق توازناً سعيداً بين عقل الانسان وقلبه .

عفت محمد الشرفاوي

روح العصر هنا هي ملابس الانقضاء بالحضارة الغربية الحديثة ، التي انسجت فيما انسجت - من غير قصد - ردود فعل من بينها حركة التجديد الديني بعد ركود طويل . ويبدو ان الفكر الاسلامي بعفريته الخالدة يمتاز بهذه المروية الخلاقة ، التي تدعوه داتها الى مراجعة ذاته حين يستشعر الخطر ، فينلمس تصحيحاً لمساره التاريخي ، لينتخلص من زيف تصنيفه عليه ظروف التخلف الاجتماعي والسياسي على مر الزمن ، ليعود جديداً نقياً .

كان هذا النقد الذاتي الذي يستلزم معسادة الرجوع الى المصدرين الاساسيين في التشريع هو عدة الفكر الاسلامي . ففي العصر العباسي حين انتشرت الزندقة وجدت فلسفات اجنبية تهدد الفكرة الاسلامية في الصميم ، نشأت فلسفات اسلامية يعود اصحابها الى تجديد التفكير في تفسير مصدر الشريعة الاول . وحين يظهر التناثر في المشرق ويستولون على بغداد ويزحفون الى الشام ومصر ، ويخرج الصليبيون والافرنج الى هذين الاقليمين تدب حركة التجديد مرة اخرى ، ويحاول مفكر مثل ابن تيمية ان يعود الى الاصل الاول يتلمس فيه تصحيح موقف الثقافة الاسلامية . ثم تعود الدعوة من جديد في العصر الحديث حين يحتدم الشر بالامة الاسلامية من كسل جانب وتنازل على الامة العربية قوى الطغيان والاسفلال والاستعباد . في تقويم جهود المفكرين الدينيين من اصحاب هذا الاتجاه في العصر الحديث ، لا يملك المؤرخ الا الاعجاب باهتدائهم الفطري الى فكرة المعيار الاسلامي الجديد . ولقد يبدو ان اعمالهم لم تكن في جملتها الا استمدادا لاعمال السابقين من المفسرين . ولكن اختيار الفكرة من بين عديد من الافكار التي يقدمها المفسر القديم وترجيح هذا الاختيار بالتعليل الواضح ، وتطبيق فكرة النص على ملابس العصر الحديث ، وربطها بظروف المجتمع المعاصر ، وملاحظة الواقع الحضاري الذي يعيشه المفسر ، كل ذلك عملية كان لها صعوبتها ودلائها على عقلية المفسر الجديد وتعبيرها الصادق عن موقفه من قضايا الانسان المعاصر في وقته ، فضلا عن كونها جهداً جديداً يضاف الى تراثنا الواسع . على ان اهم ما يسجله مؤرخ الثقافة الاسلامية في مثل هذا المجال لهؤلاء المفكرين انهم بعثوا المفهوم الاجتماعي للدين بعثاً ، بعد ان عاش المسلمون قروناً يبعثون بين الدين والحياة بفعل عوامل مختلفة من التخلف الفكري والاقتصادي والسياسي .

لقد حققت جهود هؤلاء المفسرين اثرها في ضبط عملية الاستمداد الحضاري الذي نعيشه ، بعد ان زاد اتصالنا بالغرب وبافكاره وثقافته . وفي رأيي انه لو لم تتجدد هذه القيمة في حياتنا ، ولم يبرز الدين عاملاً اجتماعياً هاماً تتركز حوله شخصيتنا الحضارية ومثلنا الاساسية لكان من الممكن ان يكون لهذا الاستمداد اثره المدمر على شخصيتنا الثقافية . ان عملية النقد الاجتماعي التي قام عليها مثل هؤلاء المفكرين اسهمت في عملية الضبط الحضاري الواعي وجنبت الامة فيما جنبت شر الفلق والحيرة والضياع والتذبذب بين جديد لا يمت الى ماضينا باية صلة وبين واقفنا النفسي الذي يجذبنا بشدة الى تراثنا الحضاري الخاص .

ورغم كل هذا ، فانه قد يؤخذ على اصحاب هذا الاتجاه انهم افتقدوا احياناً عنصر المبادرة الى تصور حقيقي لبعض مشكلات الامة ، وان اشاراتهم تخلفت احياناً عن مستوى الاحداث وبقيت تابعة . يمكنني بالتبرير لحركة الاصلاح القائمة دون ان يكون لها دور الريادة والتوجيه ، قد يؤخذ عليهم مثل هذا التنصير ولكن يبقى بعد ذلك ان حركتهم كانت في الحقيقة استجابة اصيلة لكل ظروف بيئتهم ، وان الخروج على هذه الظروف كان خروجاً على سنن النطور . ويكفي ان جهدهم العظيم في احياء المفهوم الاجتماعي للدين دور يذكره مؤرخو الحضارة العربية بكل تقدير . وياتي الحديث بعد ذلك عن اصحاب الاتجاه الثاني من المفسرين الذين يعنون بربط النظرية العلمية الحديثة بالنص القرآني . وكثير من هؤلاء المفسرين من غير رجال الدين التقليديين ، استهوتهم فكرة المزوجة بين المسلم والدين وشغفوا بخلق توازن سعيد بين المجالين . ولقد كانوا يصدرون عن مبدأ آخر هو محاولة البحث عن مركب ثقافي نستجمع